عن الشرف الذي لا يزول ..

ثمة أقوام، يرون أن "الشرف" أمرٌ مرتبطٌ بالأشخاص لا الأفعال، وبالجماعات لا المواقف؛ لذا لا يكفون عن الاعتقاد بأن الشرف ليس سوى جزءً من تكوين زعيمهم وشيخهم، ينام ويصحو معه، يغضب إذا غضَب، ويهدأ إذا استكان، ويدور معه حيثُ دار.

وإذا قام هذا الزعيم مرةً وقتل مدنيين، أو حرّض ووشى وكذب وافترى، أو هجّر أبرياء من أرضهم، أو ساند نظامًا فاشيًّا مجرمًا، فمن المؤكد أن المشكلة في الضحية لا القاتل، وأن أولئك المُهجّرين ليسوا سوى "تكفيريين" وضعهم القدر في الأرض الخطأ، وعليه هو أن يساند تصحيح أخطاء التاريخ، وأن ذلك الشعب الذي يرزح تحت بسطار الاستبداد هو في حقيقته لا يستحق أكثر من ذلك.

ثمة أقوام، يريدوننا أن نتذكر فقط أن يزيد بن معاوية كان قائد أول جيشٍ وصل إلى أسوار القسطنطينية، وأن الحجاج بن يوسف كان معلمًا للقرآن، وأن الحبيب بورقيبة كان من قادة الاستقلال عن الاستعمار، وأن أحمد جبريل خاض مع جبهته معارك شرسة ضد الصهاينة، وأن الشيخين البوطي وعلي جمعة قدما كتبًا مهمة في الفقه الإسلامي، فهؤلاء لا يكتفون فقط بذكر جزء من الحقيقة، بل هم يقومون عمدًا بتزوير التاريخ، وتلميع الظالمين، ونظْم قصائد الغزل بأولئك الموغلين في العار.

وربما لن يكون مطلوبًا منّا بأن نذكّرهم أن يزيد هو قاتل سَبط رسول االله الحسين، وأن الحجاج هو السفاح الذي قتل وطغى، وأن الحبيب بورقيبة هو من صنع نظامًا استبداديًا لم يكن أقل سوءًا من الاستعمار، وأن أحمد جبريل وجبهته ليسوا الآن سوى شبيحة مأجورين يقتلون شعبهم في مخيم اليرموك قبل أن يقتلوا السوريين، وأن البوطي وعلي جمعة ما فتئا يتلوان تراتيل الثناء على جيوش الظالمين بعدما أسبغوا على جرائمهم سندًا من السماء.

وفي ثنايا ربيعنا العربي المشتعل بكل إقدامه وانتكاساته، كانت نضالات التحرر مقياسًا مهمًا لاختبار حقيقة الشرف المُدّعى من قبل شخصيات وجماعات ودول، وكانت ثورة سوريا أكثر حلقات الربيع كشفًا لزيف من يقف في صف الشعوب وهي تثور وتتحرر، ومن يقف في صف القتلة والمجرمين والفاشيست، ومن هو معنيٌ بفلسطين كأرضٍ مغتصبة لأمة تنشد حريتها وكرامتها، ومن هو معنيٌ بفلسطين كـ "لافتة" وغطاء يُمرّر تحته مشروعاته الاستبدادية والطائفية.

فوجدنا أنفسنا أمام أقوام، كلما قيل لهم إن النظام السوري قتل من العرب في عامين أكثر مما قتله الصهاينة في ستين عامًا، وإن حزب الله كان ضد ثورة الشعب السوري منذ يومها الأول، وعلى امتداد شهورٍ لم يُطلق فيها الثوار رصاصة واحدة ولا رفعوا شعارًا طائفيًا واحدًا، ثم دخل بمقاتليه لحماية أبشع نظام استبدادي عربي، وإن الحزب قتل من السوريين عشرات أضعاف من قتل من الصهاينة، بعدما تبين أن "واجبه الجهادي" المقدس كان في قتال أهالي القصير والمليحة ويبرود، وإن ميادين الشهادة و"النصر الإلهي" كانت على أرض حمص وحلب ودمشق، ستجدهم يقولون لك: ولكن الحزب قاتل الصهاينة وقدّم شهداء، وكأن من قاتل الصهاينة يومًا فهو مغفور الذنب مهما فعل وأجرم وارتكب الموبقات! وكأن من قاتل من أجل فلسطين مرة، فقد نزلت عليه العصمة من السماء، وصار بوصلة للحقيقة، وملاكًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

حين نكون أمام قاتلٍ أو مرتشٍ أو مجرم، فليس ذا معنى أن تبقى تُكرر أن فلانًا كان يومًا رجلاً طيبًا، أو أنه سبق وأن فعل خيرًا، أو أنه دافع مرة عن مظلوم، أو خاض مرة معركة شريفة، لأن كل ذلك لن يغير مقدار شعرة من كوننا الآن نقف أمام قاتلٍ أو مرتشٍ أو مجرم.

ما فتئ الأنبياء والصالحون يبتهلون إلى الله أن يُحسن لهم الختام، فالأعمال بالخواتيم لا البدايات، وصِدْق النية وعُمق الإيمان يتجلى في لحظات الشدة والامتحان وتعارض المصالح مع المبادئ، لا في لحظات الهدوء ووضوح الرايات.

ليس ثمة شرفٌ لا يزول، فالشرف لصيقٌ بالأفعال والمواقف، وهي من تؤكده أو تنفيه.

كلُ شرفٍ يزول ويبلى ويتلاشى إذا قرر صاحبه يومًا أن يخوض في الوحل، وأن يرتدي خوذة المجرمين ويشاركهم معاركهم، وكلُ شرفٍ يفنى وينتهي عندما يُقدّم المرء المصالح على المبادئ، وحين يقوم، تحت لافتة الدفاع عن قومه وطائفته، بسحق "الأغيار"، وارتكاب الموبقات.

ربما في هذا الكون صفاتٌ وأخلاقٌ كثيرة يمكن أن تتداخل وتتلاقى وتتقاطع، لكن ما ليس فيه شك، أن الشرف لا يجتمع أبدًا مع دعم استبداد، وتأييد قمع، وغسل عار المجرمين والدفاع عنهم.

نُشر هذا المقال لأول مرة في موقع عربي 21

رابط المقال: https://www.noonpost.com/3617/